المدارس والاخلاق

« لا تقوم واجبات المدارس بتعليم العلوم فقط بل ان بث روح الفضيلة والاقدام من اخص واجباتها »

جول سيمون

تنبه الناس حديثاً لانشاء المدارس في الشرق ورغب بعضهم فيها بعد ان ذاقوا لذة العلم ورأوا اعظم تأثيره في الغرب فعملوا على تأسيسها جهدهم ولم يمضِ زمن حتى كثرت معاهد العلم وتعددت لاسيما في اليابان مملكة الشمس المشرقة مدهشة العالم بسرعه ترقيها . أتى على بلادنا ازمان عفت فيها آثار المدارس او كادت الا ما كان هناك من كتاتيب قليلة ضئيلة فعادت تنفض عنها غبار الاهمال وتزهو بما أُنشيء فيها من بيوت العلم حتى اوشكت تضاهي بعض بلاد الافرنج العامل اهلها على توطيد اركان العمران فيها والخلاص من مستوبل المفاسد بالتهافت على العلم والرغبة في التهذيب توصلاً الى بلوغ الكمالات الانسانية والتمتع بما يجعل الحياة على الارض هنيئة صافية لا شرَّ فيها ولا شقاء وهو مما يسر ولا جرم المحبين المنصفين ويحقق آمال العاملين المخلصين ويبشر بمستقبل باهر وارتقاء اكيد ينهض بالشرق من كبوته ويعيده الى سابق عظمته

ولقد مرّت على مدارسنا اعوام وهي الى يومنا هذا لم تعن بتحسين الاخلاق واصلاح الملكات والعادات اعتناءها بقواعد اللغات والرياضيات والطبيعيات على حين نرى الحاجة ماسة الى تقويم اود الاخلاق وعجن النفوس في مركن الوطنية وحب الخير والاحسان وتنظيفها من اقذار ما توالى على البلاد من النوائب والاحن وعوامل الجهل والانحطاط وتنشئتها على الجرأة والعزم والحزم والاقدام والتساهل والمسالمة والتعاضد والاتفاق وتدريبها على الصدق والاخاء والاجتهاد والترتيب والاقتصاد وتقويتها على احتمال اثقال الحياة ومتاعب العمر وتذليل العقبات ومقاومة النجارب بالعفة والنزاهة والمكاره بالصبر والترفع عن الصغائر والتمسك باهداب الفضائل والنهوض الى معالي المجد والخير بالحق وعدم الاعتداد بالقيل والقال والتشبث باهداب المحال وتربيتها على احترام حق الضعيف واكرام المستحق ومعاونة القاصر وتنشيط المستعد وطلب النافع ونبذ المضر الى غير ذلك مما يؤهل المرء ليحسن القيام بواجباته والتمتع بحقوقه ويؤدي به الى ما يتمناه له المصلحون . وهذه كما رأيت امور اولية ينبغي ايثارها على كل شيء

وقلما نظرت مدارسنا مع ما فيها من العلماء والادباء وما لها من الفضل في انارة الاذهان

وترقية العقول وتوسيع المدارك الى تلك المقومات نظر حكيم مخلص يعرف كيف يداوي الاعلاء ونقاوم ادواء الامم ولم نقصر جلّ اهتمامها الاّ على حشو الادمغة بقواعد اللغات والرياضيات والطبيعيات على ما مرّ بنا آنفاً غير مفسحة للادبيات والاجتماعيات الاّ القليل من اوقات الدراسة فيها كأنها تجهل قيمة النفس وتأثير الاخلاق في الوجود . والانكى ان ما تعلمه الواحدة وتذهب اليه تشجبه الاخرى وتبعد عنه وما تحض عليه هذه تقاومه تلك اذ ندر وجود مدرسة عندنا لاغاية لها في العلم ولا مأرب خاص على ان العلم لا مشرب لهُ ولا دين كما قال المقتبس الاغر في عدد اسبق

ولا تحصر واجبات المدارس فيما تجري عليه مدارسنا الحاضرة التي تفقد الاولاد كثيراً من الامور الطاهرة الآتية معهم اليها وتضعف فيهم اميالاً سامية فطروا عليها مذ تكونوا في احشاء امهاتهم وتلاشي منهم نزعات شريفة ورغائب عظيمة مقدسة وتبث فيهم مبادىء تافهة وتعودهم عادات سيئة وتمكن منهم اخلاقاً فاسدة وتنشئهم على التعصب والادعاء والكبرياء والضعف والجبن والكذب والرياء وما اشبة ذلك من النقائص التي اكلت من لحومنا وشربت من دمائنا مئين من السنين حرمنا فيها الهناء والارتقاء . ولولا اعداد المدارس طلبتها للاستنارة بنفوسهم لتفوسهم وتأهيلها لهم بالعلم لدرس الآداب والعمل على تحسين الاخلاق لما بالغنا اذا قلنا ان مدارسنا اضرت قدر ما نفعت . ومن راقبها بنزاهة واخلاص وبحث في طرائق التربية فيها بحثاً دقيقاً اذا جاز لنا ان نقول ان فيها تربية تتضح له الحقيقة باجلى بيان . . . واصلاح المدارس خير اساس يجب ان يقوم عليه الاصلاح

الضغط على العقول وارهاق الوجدانات وخنق الافكار ومعاكسة النوابغ ومعاملة التلاميذ بالقسوة والجور والشراسة والاستبداد والشتم والضرب وقلة الادب على نحو ما بينت ذلك في فصل من كتابي الانسان ابن التربية (١) وايثار اهواء المعلمين على القوانين ومآرب الوالدين على مصالح البنين وعدم الاعتداد بالغرائز وعدم تنشيط العزائم وتعزيز الصدق والجرأة والاقدام وعدم جعل المعلمين انفسهم قدوة حسنة للتلاميذ وتطبيق افعالهم الخاصة والعامة على اقوالهم وما شاكل ذلك مما يأتي به كل معلم غير مؤهل للتعليم باخلاقه وآدابه على ما نشاهد في كثير من مدارسنا مما لا حاجة الى اعادة ذكره الآن واثارة الاشجان بتعداده — كل هذا اساس فساد الاخلاق في المدارس

راقبت مرة طلبة احدى المدارس في وقت الراحة فرايتي امر تلميذ منهم كان كمن يبحث

(١) هو كتاب ادبي اخلاقي انتقادي تحت الطبع

عن ضائع وعرفت بعد البحث انه يحمل (السنيال) (١) وقد رأيته يأتي من ضروب الرياء والتجسس ما احزنني على مستقبله ومستقبل ابناء مدارس من مثل هذه تدرب بنيها على عادات سيئة واعمال دنيئة . وهل اسوأ وادنى من جاسوس يغتاب الناس وينم بهم . ولو اعترض احد على مثل هذه الامور لاحتجت المدارس على اتيانها بحجج و براهين لا تخرج عن حد (الغاية تبرر الواسطة) وعندي ان شرف الاخلاق واباء النفس مع العلم القليل خير من الصغار والدناءة مع اتقان التكلم بعدة لغات

من المسئول عن فساد اخلاق شبان العصر وسوء احوالهم الادبية يا ترى غير البيوت والمدارس ؟ واذا كان الوالدون على ما يعهدهم الجميع لا يعرفون من شؤون التربية غير اسمها ولا من الاخلاق الا ما شبوا عليه ولا من العادات سوى ما تأصل فيهم افلا يجدر بالمعلمين المتعلمين المهذبين ان يعوضوا عن هذا النقص جهدهم و يسدوا من الخلل ما يستطيعون؟ نعم لا انكر ان المعلمين اليوم هم ابناء هذه المدارس ايضاً وما يتقاضونه من الرواتب لا يرغب في المهنة المهرة البارعين ولا يدني منها غير الكسالى العاجزين في اغلب الاحوال ولكن اين تأثير الادارة والرئاسة ورواتب المديرين والرؤساء لا تحول دون انتخاب المستعدين والمستعدون على ازدياد ؟

يقولون اكثروا من المدارس واستكثروا . ولا نجاح لنا بلا مدارس ولا ارتقاء . ولكن فاتهم ان ما عندنا منها لو عرفت كيف تربي اخلاق بنيها على ما يعوزنا لكان الاغنياء منهم ينشئون المدارس من تلقاء انفسهم دون ان يحوجونا الى النداء والمطالبة والحكام يديرونها حسب الاصول دون استبداد بالاولاد وتلاعب بالحاسات والمعلمون يهذبون النفوس ويكفوننا مؤونة الكلام في هذا الموضوع الخطير . وقد كثرت مدارسنا وحسبنا من انواعها ما عندنا وخير من زيادتها ايضاً العناية بتحسين طرق تربية الاخلاق فيها وهذا الركن العظيم الذي يتوقف عليه نجاح الامة

لا ريب ان المدارس تكيف الامم وبواسطتها تستطيع كل امة تغيير ما تريد من عاداتها ومبادئها واخلاقها اذا توحدت فيها غاية التربية والتعليم ووافق كلاهما حاجات الامة لاسيما وابناء المدارس وبناتها سيصبحون يوماً آباء وامهات يتولون تربية الاولاد الاولى الاساسية التي تدوم آثارها بدوام العمر ولا يلاشيها الا القبر . فعلى المدارس فقط يمكننا ان نعتمد الآن في تهذيب الاخلاق واصلاحها هذا اذا عرفت كيف تتوصل الى ذلك بالتربية الصحيحة والتعليم القويم . وقد اكثر العلماء والفلاسفة الغابرون والحاضرون من ايضاح اصول

(١) علامة يتناقلها الطلبة الذين يتكلمون العربية اوقات اللعب في بعض المدارس الافرنجية

التربية والتعليم وما على من يتعاطى صناعة التدريس ويتولى شيئاً من امور المدارس الا مراجعة ذلك في اماكنه ودرسه حق دراسته وانتخاب ما يلائم حالة السكان ويوافق حاجاتهم واتقانه تمام الاتقان والاّ فسدت اعمالهم وساءت نتائجها كما هو الواقع لعهدنا

وبعد فكيف نرجو ايجاد امهات مدركات واباء عاقلين نعتمد عليهم في تنشئة ابناء الغد على المبادىء السامية والاهابة بهم الى اسمى قمم الاجتماع وادراك مراتب التمدن الرفيع ومدارسنا الحاضرة لا عناية لها بالاخلاق كما ينبغي ؟ كيف نتمنى بلوغ المجد والاخذ بحظ وافر من الانسانية وحفظ الثروة واحسان التمتع بالحقوق والقيام بالواجبات واخلاقنا على ما هي من الفساد والالتواء ؟

الاخلاق الاخلاق خير ما تطالب به المدارس واصلاحها من الاوليات الضروريات التي يجب ان تنحوها مقاصدها وتسدد اليها خطى المسعى . وعلى كل معلم ان يضع هذه الغاية الشريفة نصب عينيه ويلهج بذكرها في الليل والنهار كيفما حلّ وسار . ولا يغني المرء عن شريف الخصال مال ولا جاه ولا عزّ ولا بنون ولا ينيله حب الناس واحترامهم وتفعيمهم له الا ما فطر عليه من كريم السجايا وما اعتاده من حميد العادات . وما الاخلاق في عرف الناس الا مجموع عادات والعادة نتيجة ممارسة

فاذا قام الوالدون والمعلمون بالوسائل الفعالة على منع الاولاد من ممارسة كل مالا يحسن بهم ان يعتادوا عليه يحفظوا لهم مستقبلهم من ثقل وطأة تلك العادات ويخلصوهم من شرها واذا فات ذلك الاباء والامهات لجهل وغباوة لا يجب ان يفوت الاساتذة الذين يدعون العلم والمعرفة ويتنصلون من وصمة الجهل والغباوة

بيروت — جرجي نقولا باز

ميت الاحياء وحي الاموات

تيقظ فما انت بالخالد ... ولا صرف دهرك بالراقد
تخلد بسعيك مجداً يدوم ... دوام النجوم بلا جاحد
وابق لك الذكر بالصالحات ... وخل النزوع الى الفاسد
ورد ماينادينك عنه الصدور ... الا درّ درّك من وارد
وسر بين قومك في سيرة ... تميت الحُقود من الحاقد
فان فتى الدهر من يدعي ... فتأتي اعاديه بالشاهد

ولا تك مرمي بداء السكون فتصبح كالحجر الجامد
وكن رجلاً في العلى حولاً تفنن في سيرة الراشد
اذا اطردت حركات الحياة وجاءت على نسق واحد
ولم تتنوع افانينها ودامت بوجه لها بارد
ولم تتجدد لها شملة من السعي للشرف الخالد
فما هي الاَّ حياة السوام تجول من العيش في ناقد

* * *

وما يرتجى من حياة امرء كماء على سبخة راكد
وليس له في غضون الحياة سوى النفس النازل الصاعد
يغض على الجهل اجفانه ويرضى من العيش بالكاسد
كأن كل الطعام ولبس الثياب وامرار وقت بلا عائد
فذاك هو الميت في قومه وان كان في المجلس الحاشد

* * *

وما المرء الاَّ فتى يقتدى الى العلم في شرك صائد
سعى للمعارف فاحتازها وصاد الانيس مع الآبد
وطالع اوجه اقمارها بعين بصير لها ناقد
فابدى الحقائق من طيها والقى القيود على الشارد
اذا هو اصبح نادي البدار وشمر للسعي عن ساعد
فكان المجلي في شأوه بعزم يشق على الحاسد
وان بات بات على يقظة بطرف لنجم العلى راصد
واحدث مجداً طريفاً له واضرب عن مجده التالد
وما الحمق الا هو الاتكال على شرف جاء من والد
فذاك هو الحي حي التخار وان لحدته يد اللاحد

بغداد معروف الرصافي